التعليم فى الطفولة المبكرة
أشراف : د . كاميليا عبد الفتاح

القيمة التربوية
للحضانة ورياض الأطفال

تأليف :
سوزان ايزاكس

ترجمة :
محمد محمود رضوان

دار الشروق

القيمة التربوية

للحضانة ورياض الأطفال

هذه ترجمة لكتاب :

The Educational Value

of the Nursery school

Susan Isaacs

1981

الطبعـة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

التعليم فى الطفولة المبكرة

اشراف : د . كاميليا عبد الفتاح

القيمة التربوية

للحضانة ورياض الأطفال

تأليف :

سوزان ايزاكس

ترجمة :

محمد محمود رضوان

دار الشروق

المحتويات

مُقَـدّمَـة

يستهدف هذا الكتيب إلقاء الضوء على القيمة التربوية للحضانة والروضة بالنسبة للطفل الصغير ، وسوف نركز اهتمامنا بصفة أساسية على الحياة العقلية للطفل ، وحاجاته ، كإنسان له رغباته وغاياته من حيث علاقته بغيره من الأناسى ، أما الخدمات التى توفرها الحضانة أو الروضة فيما يتعلق بصحته البدنية ونـموه الجسمى فلن نتعرض له إلا بأقل القليل .

إن هناك الكثير مما كتب عن قيمة الحضانات ورياض الأطفال من حيث ما تهيئه من هواء نقى ، ومكان فسيح ، وتمرينات ، وراحة كافية ، وطعام طيب ، ومن ثم تعوض ما يعانى منه عدد كبير من أطفالها ـ وبخاصة فى مدننا الكبيرة ـ من نقص خطير فى هذه المجالات . والحق أن مهمة الحضانات ورياض الأطفال فيما يتعلق بهذه النواحى قد أصبحت أمرا مقررا يعلمه الجميع حق العلم .

أما المهمة التربوية الكبرى للحضانات ورياض الأطفال فإنها ـ بصفة عامة ـ لم تنل بعد حظها من التقدير . هذا صحيح ، ويرجع

السبب فى ذلك ـ أساسا ـ إلى أن إلمامنا بمشاعر الطفل وغاياته . وبأساليب تعلمه وتفكيره ، لم يتوافر لنا إلا منذ قريب ، بل إنه لايزال منقوصا ولا يزال أمامنا الكثير الذى علينا أن نعلمه عن نشاطات الطفل فى تناوله للمواد والأدوات المختلفة ، ولعبه مع غيره من الأطفال فى الأعمار المختلفة ، وعن الطرق المتباينة التى يمكننا بها أن نكفل له صحة عقلية طيبة . إن لدينا اليوم ـ على أية حال ـ قدراً من التفهم لكل أولئك ، وقد بدأنا نعترف بما لها من أهمية قصوى .

إننا ـ بالطبع ـ لا نستطيع أن نفصل فصلا قاطعا بين العناية بالجسم وسلامة العقل ، فالصحة البدنية ذاتها قد تتوقف على اللعب النشيط للطفل وعلاقاته السعيدة بالناس ، بنفس القدر الذى تتوقف به على الطعام الجيد والهواء الطلق وضوء الشمس ، والعكس صحيح ، فالطفل لا يمكن أن يكون سعيدا إذا كان جائعا أو حبيسا أو كان يعانى من الأرق . ومع أن كلا من هاتين الناحيتين من نواحى نموه ترتبط بالأخرى هذا الارتباط الوثيق ، فمن الممكن ـ مع هذا ـ أن نركز اهتمامنا بصفة أساسية على إحداهما أو على الأخرى طبقا لمقتضيات الدراسة . وفى هذا الكتيب ، سوف ينصب اهتمامنا على شخصية الطفل أكثر مما ينصب على صحته البدنية . سوف نشير إلى بدنه ، ليس باعتبار أنه غاية فى ذاته ، ولكن باعتبار أنه أداة لمشاعره وذكائه .

إن الفائدة التى يجنيها الطفل من حياة الحضانة أو الروضة لم تعد مجرد مسألة رأى من الآراء ... إنها تستند اليوم على خبرة واقعية وحقائق يدعمها الدليل . إن المعرفة العلمية العامة بحاجات الطفل فى النمو ، والمقارنة الواقعية بين الأطفال الذين انتظموا فى الحضانات ورياض الأطفال وبين أولئك الذين يماثلونهم فى ظروف الحياة العامة ولم ينتظموا فى أى منها ـ كلتاهما تمداننا بالدليل الذى يؤيد حياة الحضانات ورياض الأطفال .

الدراسة العلمية تمدنا بمعلومات عن حاجات الأطفال

إن الدراسة العلمية لسلوك الأطفال الصغار قد مكنتنا فى السنوات الأخيرة من فهم الخطوط العامة للنمو الطبيعى من الطفولة الأولى إلى الحياة المدرسية . فكل أم ، وكل ممرضة ، وكل معلمة لها خبرتها الخاصة التى ترجع إليها فى محاولة تقدير حاجات الأطفالِ الذين تتعهدهم ، ومن ثم تحصل على فكرة ما عن الأطفال بعامة .. ولكننا ـ فى أيامنا هذه ـ لا نقتصر على هذه الدائرة الضيقة المحصورة فى خبراتنا الخاصة ، وإنما تتجمع لدينا معارف وأحكام أعداد ضخمة من الملاحظين فى دراسة علمية . لقد عرفنا كيف نراقب سلوك الأطفال ونسجله ، وكيف نرتب الحقائق التى جمعناها ونصنفها ، ومن ثم نحصل على نتائج وأحكام عن نموهم أكثر ثقة وأوسع قابلية للتطبيق من تلك التى نأمل فى الحصول عليها عن طريق الاحتكاك المحدود الذى يقوم به أى منا ، أو يقوم به ـ بصفة خاصة ـ أى من أولئك الذين يعملون ميدانيا طول الوقت فى رعاية الأطفال أو تعليمهم .

لقد عرفنا كيف نلاحظ أعداداً كبيرة من الأطفال سواء أكانوا أفراداً أم جماعات ، إما عن طريق إعطائهم مشكلات ليحلوها تحت ظروف محكمة ، أو تجارب أو اختبارات ، وإما عن طريق مراقبة سلوكهم تحت ظروف عادية فى حياتهم اليومية حينما يلعبون معا فى المنزل والحديقة ، وعند العمل فى المدرسة . لقد عرفنا أن هناك مصدرا يقف فى القمة بين مصادر الحصول على معارفنا عن الأطفال ، ونعنى به دراسة لعبهم العادى التلقائى ، سواء أكان فى المنزل أم فى ملعب المدرسة أم فى الشارع أم فى الحدائق .

لقد تعلمنا من المربين العظام منذ زمان طويل أن الطفل يكشف عن مكنونات نفسه فى أثناء اللعب . لقد استطعنا فى السنوات الأخيرة أن نتفهم ـ تفهما أكثر استيعابا منه فى أى وقت مضى ـ المعانى العميقة التى ينطوى عليها لعب الطفل الصغير ، فإذا راقبناه حينما يكون حرا فى اللعب كما يشاء فإنه سوف يرينا كل ما هو راغب فيه أو ما يخاف منه ، كل ما يجول بخاطره أو يراود نفسه أن يفعله . إنه يرينا ما هم الكبار بالنسبة له ، وما اتجاهاته التى تعتلج فى نفسه إزاءهم وما مشاعره نحوهم ، وما تلك الأحداث ـ فى دنيا المادة ـ التى تدفعه إلى السعى لتفهمها والسيطرة عليها . إن الطفل ينبئنا ـ من خلال لعبه ـ الكثير الكثير عن حاجاته فى نموه .

أمّا وقد جمعنا بين كل مصادر المعرفة هذه ـ فقد بلغنا اليوم

درجة كبيرة من تفهم للنواحى المتباينة للحياة العقلية للطفل العادى فى أثناء نموه منذ مولده حتى السنوات الوسطى من طفولته .. ومن تفهم لخط نموه الطبيعى ، وما قد يطرأ عليه من تقلبات ، ومن تحرك فى هذا الاتجاه أو ذاك ، وكذلك لكثير من الفوارق المتباينة بين طفل عادى وآخر. ولكن ، لا يزال فى حوزتنا مصدر آخر من مصادر المعلومات له أهميته ، فثمة أطفال كثيرون لا يتأتى نموهم فى طريق قويم ، وفى يُسر وسعادة .. وإنما يصطدمون ببعض المصاعب فى هذه السنوات المبكرة ، وتقوم مراكز رعاية الأطفال الصغار وعيادات الطفولة للتوجيه والإرشاد ، فى جميع أنحاء العالم منذ سنوات عديدة بتقديم المساعدة لهؤلاء الأطفال التعساء ، أولئك الذين لا يقدرون على التعلم كما كان ينبغى لهم ، أو لا يقدرون على التحدث فى العمر المناسب ، أو يعجزون عن تعلم القراءة والكتابة ، أو يعانون من نوبات الغضب ، أو من المخاوف الليلية ، أو الذين يكذبون أو يسرقون ، أو الذين يخرّبون ، أو يعتدون على غيرهم من الأطفال ، أو يعجزون عن اللعب معهم . وعلى الرغم من ذلك ، فإن هؤلاء الأطفال الذين لا تلبى بيئتهم الطبيعية حاجات نموهم ، والذين يحتاجون إلى مساعدة خاصة ، وإلى أسلوب علاجى من نوع ما ـ يعلّمونا دروسا كثيرة ، بأخطائهم وتعاستهم ، كما أننا ـ حينما نحاول مساعدتهم ـ نتعلم ما هو وجه الخلل والقصور ، وفيم أخفق المنزل أو

المدرسة فى التعامل معهم ، وكيف نستطيع أن نتجنب مثل هذه الانهيارات والصعوبات فى غيرهم من الأطفال .

وبمقارنة هؤلاء الأطفال التعساء بالأطفال العاديين فى المنزل والمدرسة نكتشف أن الفرق لا يكمن فى أن الأطفال العاديين مبرأون من الاضطرابات الانفعالية . فالواقع أننا كلما تعمقنا فى دراسة المسألة ازددنا علما بأن حدوث الاضطرابات الانفعالية ـ أيا كان نوعها ـ هو أمر عام وطبيعى فى سنوات الطفولة الأولى . فالطفل العادى الذى يعيش فى بيت طيب ينمو وهو فى منأى عن صعوباته ومشكلاته ، أما الأطفال الآخرون فإنهم يعانون معاناة شديدة ، ولا يتركون اضطراباتهم وراءهم بممارسة نموهم الطبيعى ، وإنما تبقى معهم . وهكذا فإننا قادرون على أن نكتشف ما هى أساليب التعامل مع صعوبات الطفل الصغير ، تلك الأساليب التى تساعده على التخلص منها ، وما نوع موقف الكبار أو مسلكهم إزاء الطفل الصغير ، والذى يتسبب فى تفاقم صعوبات النمو لديه وتدعيمها .

ومرة ثانية ، فإن دراسة لعب هؤلاء الأطفال المُشْكلين قد أمدَّنا بمزيد من الأضواء التى كشفت عن حاجات نموهم . إن الطفل غير السعيد يلعب بطريقة تختلف عن تلك التى يمارسها الطفل الذى ينمو نموا سويا . إنه يكشف لنا عن المصادر العميقة لمشكلته من خلال لعبه .

ولهذا فإن دراستنا لهؤلاء الأطفال المشكلين الذين يحتاجون إلى صيغ خاصة للأخذ بأيديهم قد أسهمت فى زيادة رصيدنا من فهم النمو السوى ، وأعانتنا على أن نتعرف ـ فى عمق وسعة ـ حاجات الطفل فى النمو فى طفولته المبكرة .

الخبرة بالحضانات ورياض الأطفال تمدنا بمعلومات عن حاجات الأطفال :

وإلى جانب هذه المعارف العامة فنحن اليوم نستطيع أن نعتمد على خبرة سنوات طويلة فى العمل مع الحضانات ورياض الأطفال فى بلاد مختلفة . فعلى مدى أكثر من عشرين عاما[1] التحقت أعداد متباينة من الأطفال الصغار فى الحضانات ورياض الأطفال فى بقاع كثيرة من العالم ، واستطعنا أن نراقب ونسجل تفاصيل عن نموهم تحت هذه الظروف . إننا نستطيع أن نقارن بينهم وبين نمو أطفال آخرين من نفس النوع ولم يلحقوا بحضانة أو روضة . ولقد أجريت مقارنات دقيقة بين الفئتين فأظهرت بما لا يدع مجالا للشك الفائدة الضخمة التى تحققها الحضانات والرياض بالنسبة للحياة العقلية للأطفال الصغار . وعن طريق المقارنة بين هؤلاء الأطفال وبين آخرين ممن ينتمون إلى نفس النوع من الأسر ، ونفس الوسط العام

(١) ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتيب فى عام ١٩٥٤ ثم أعيد طبعه مرات عديدة ، آخرها كانت فى عام ١٩٨١ ، وهى التى نترجم عنها (المترجم) .

المحيط بهم ، ونفس الأصل العِرقى ، ونفس الدرجة من الذكاء الطبيعى ـ نستطيع أن نقيس فى شىء من الدقة درجة الفوارق التى تحدثها الحضانات ورياض الأطفال فى نمو الطفل ، واتجاه هذه الفوارق . وحتى اليوم ، نجد أن جميع هذه الدراسات قد أظهرت أن الأطفال الملتحقين بها يتعلمون بسهولة أكثر ، ويلعبون بنشاط أوفر ، ويحققون فى أى مجال نجاحا أكبر ـ مما يتعلم أو يلعب أو ينجح أمثالهم الذين لم تتح لهم هذه الميزة حتى لو كانوا يعيشون فى بيوت طيبة . من أجل هذا يمكننا أن نعتبر أنه أصبح من المسلمات التى استقرت أن الحضانة أو الروضة تقدم عونا كبيرا للطفل الصغير فيما يتعلق بمشاعره الشخصية وحياته العقلية . إنها تزيد من سعادته ، وتساعده فى اجتياز التجارب والمحن الطبيعية فى فترة الطفولة الأولى .

المفتاح الرئيسي

لكى نتفهم الخدمات التى تؤديها الحضانات ورياض الأطفال للطفل الصغير لابد أن نأخذ فى الاعتبار حاجات نموه فى خلال السنوات المبكرة التى تعقب طفولته الأولى ، وما علينا إلا أن نرقب لعبه بعين بصيرة ، وأن نستمع إلى تعليقاته وأسئلته ، لكى نتحقق أن عقله محفوف بمشكلات مختلفة ... مشكلات تتعلق بالمهارة .. مشكلات تتعلق بالإبصار والفهم .. مشكلات تتعلق بالشعور والسلوك . ولاشك أن تعرفنا للحقيقة الأساسية يمكن أن يُنظر إليه باعتبار أنه المفتاح الرئيسى الذى يفتح لنا مغاليق النمو العقلى للطفل .

ولقد سعى المربون طويلا فى سبيل الحصول على مثل هذا المفتاح لكى يستخرجوا به معنى سلوك الطفل ، وظن بعضهم أنهم وجدوه فى دور العادة ، وكثير من المعلمين ومؤلفى الكتب المدرسية قد أكدوا على أهمية العادات والتدريب على العادات الطيبة فى مراحل التعليم الأولى . والحق أن استعداد الطفل لتعلم ضروب معينة من العادة ـ

مثل حبه العام للنظام والطقوس ـ له أثر هام وعون له قيمته فى حياته ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يكون هو الفيصل فى الموضوع ، أو أن يمثل القصة كلها بالنسبة لعلاقة الطفل بالحياة . إننا لا نستطيع أن نستغل العادة الاستغلال الأمثل ما لم نفهم شيئا عن طبيعتها الحقيقية ووظيفتها ، وعما تعنيه بالنسبة للطفل نفسه . إن العادة تمثل واحدا من صغار الخدم فى الحياة ... إنها أداة الرغبات والغايات فى عقل الطفل الصغير . إنها ذات قيمة بسبب أنها تعينه على حل بعض مشكلاته التى تتعلق بالشعور والسلوك تجاه غيره من الناس وتجاه جسمه هو ، والوسط المادى الذى يحيط به .

إن الطرق التى تضع الحياة بها المشكلات أمام الطفل الصغير لا حصر لها . دعنا نلقى نظرة على بعض المشكلات التى تواجهه والتى تتميز بها هذه المرحلة ، ولن يتسع المجال هنا لأكثر من أن نوضح بعض المسائل الرئيسية التى يتعين على الطفل أن يتعامل معها فى خلال هذه السنوات من طفولته الأولى .

مشكلات الإدراك الحسى والتعامل مع الأشياء :

هاتان الناحيتان من نواحى نمو الطفل ـ إدراكه الحسى ومهارته ـ جرت العادة على أن تعالجا منفصلتين ، بل على أن ينظر إليهما كما لو أنهما تحدثان فى طورين متتابعين . أما اليوم ، فإننا نعلم

أنهما تنموان معا وأن الطفل لا يهتم إطلاقا بعملية رؤيته وسمعه وذوقه ولمسه ، أو بمهارته ، بمعزل واستقلال عن الشيء الذى يمارس فيه هذه العملية . إنه دائما ـ فيما يدور فى خلده ـ يحصر اهتمامه فى الملاحظة ومحاولة الفهم والتعامل مع الأشياء والناس ، وبصفة خاصة مع الأشياء التى تواجهه فى العالم الخارجى الذى حوله والتى يحس أنه فى حاجة ملحة إلى السيطرة عليها وأن يتفهمها . إنه يحاول دائما أن يرى الأشياء أحسن ما يمكن أن تُرى ، وأن يكشف الفوارق بين المنضدة والكرسى ، بين الفنجان والملعقة ، بين التفاحة والبرتقالة ، بين الزهور والطيور ، بين النار والشمس ، بين الكلب والقط ، بين ابتسامات أمه وتقطيباتها ، بين وجه هذا الشخص ووجه ذاك . وسعيه وراء اكتشاف هذه الفوارق يؤدى إلى نضج قدرة الإحساس بالتمييز لديه ، وإلى تخزين المعلومات الخارجية فى عقله ، تماما كما يؤدى استمتاعه بالحياة ورغبته فى أن يكون مثل أبويه وإخوته وأخواته الكبار إلى تلذذه بالحركة ونمو مهاراته .

وبينما نرى الطفل ابن السنتين قادرا على المشى بل على الجرى ، فإن قدرته على ضبط توازنه غير مُطَمئنة ؛ فمن السهل أن يتعثر فى خطوته ، ومن السهل أن يُدفع فينكفئ . ومن الطبيعى أن يكون لقصور قدرته على التوازن وعلى السلامة البدنية وقصور إدراكه الحسى للأحجام والمسافات ـ أثرهما على مشاعره وعلى حكمه على

الأشياء ، فهو ـ مثلا ـ لديه استعداد للخوف من غيره من الأطفال بسبب أنه من السهل أن يُدفع فينكفئ ، وأن إحساسه العام بفقدان الأمن والاطمئنان فى الحياة يزداد حينما يشعر أنه غير مستقر على قدميه ، وأنه ضعيف الثقة فى قدرته على أن يطُول الأشياء ويتعامل معها ، فليس من المستغرب ـ إذن ـ أنه يبدى سرورا بالغا فى محاولته السيطرة على آليات جسمه هو ، فتراه يتسلق فوق الموانع المختلفة ، وتراه يحاول أن يوازن بدنه ، ويقفز ويتزحلق ويصعد إلى أعلى السلالم ثم يهبط إلى أسفلها . إنه يعشق التحرك بطريقة يستخدم فيها الجسم ككل ، وفيما بعد ، تراه مفتونا كذلك بالعمليات التى تقتضى استخدام اليدين ، فهو يقذف بالحصى والرمال ، وهو يجذب ويدفع العربات أو الأحصنة التى على عجل ، وهو يحرك قوالب الطوب هنا وهناك ويرتبها فى تركيبات غير منتظمة ، ومن حين لآخر يكوّمها ويرفع بناءها .

وحتى فى سن الثالثة ، تراه يسعى إلى ممارسة قدر كبير من هذا النشاط البدنى العام ، ولكن ، فى توازن أحسن ، وحركات أقوى . إنه يسعد حينما يرتب الأشياء بعناية ودقة ، ويضع الدمى فى أسرّتها بإتقان وأناقة ، ويغطيها بالبطاطين فى رقة وهدوء ، ويرتب المكعبات أو يكومها لتشكل نماذج معينة ذات معنى واضح (مثلا ـ محاولة لتشكيل طائرة أو جسر) .

ومن بين ما يشغف به الطفل فيما بين الثانية والثالثة وضع العيدان أو المكعبات المناسبة فى الثقوب المناسبة . وهذا الباعث يجد إشباعا له فى أشياء بسيطة مثل إسقاط الحصى فى دلو ، أو قوالب الطوب فى صندوق ، ثم تفريغها ثم إعادتها مرة ثانية . كما أنه ــ فى فترة لاحقة ــ يسلك الحبات أو الخرز ، ويضع المكعبات والعيدان ذات الأشكال المختلفة فى الثقوب التى تناسبها ، وبذلك يتعلم بعض العلاقات الهندسية . وفوق هذا ، فكما أن الطفل يحب وضع الأشياء الصغيرة فى داخل أشياء أكبر ، فهو ــ كذلك ــ يحب إخراج الأشياء من الأوعية التى تحتوى عليها ، فهو يفرغ الأدراج من محتوياتها ، وينتزع الكتب من رفوفها ، ويلقى بالكتل والأحجار من عربة تحملها . أما عمليات مثل السَّكْب والتنقيط والتنقير والحفر . (ثم التشكيل فيما بعد ، مع استخدام الرمل والماء) ، فإنها تضفى على الطفل بهجة لا حد لها .. وفى جميع تحركات الطفل فيما بين الثانية والثالثة يجد متعة كبيرة فى التكرار .

وهناك خصيصة تلفت النظر فى طفل الثالثة حينما يحاول السيطرة على بعض المهارات (كاستخدام المقص مثلا) ألا وهى أنه يستجمع جسمه كله فى عمل وحركة لكى يعاون الحركة المحلية ، فهو يخرج لسانه أو يلويه ثمة ، ورجلاه تتحركان مع يديه وذراعيه ، وجسمه كله يصبح متصلبا مشدودا فى محاولة منه لكى يسيطر على الحركة

المعينة المنشودة . وعندما يزداد التوازن الجسمى العام للطفل وتصبح حركات يديه وذراعيه أكثر مهارة فإنه ـ ببطء ـ يتخلص من ذلك التصلب و « الانشداد » . الذى يعترى الجسم ككل حينما يؤدى حركة معينة .

وبعد سن الثالثة تزداد قدرة الطفل على استخدام اليد فى التعامل مع أشياء مثل الجاروف أو الفراجين أو الأقلام بدرجة كبيرة ، وحينما يجرى بين أطفال آخرين فإنه يستطيع أن يقدِّر المسافات والسرعة بأفضل من ذى قبل ، وهو الآن أقل عرضة للاصطدام بهم ، أو التعثر والسقوط إذا لامسه الآخرون فى أثناء جريهم . وتستمر مع الطفل فى هذه السن متعته العظيمة بالنشاط البدنى كالجرى والقفز والتسلق ، وهو ثمة فى حاجة إلى عديد من الفرص التى يمارس فيها الحركات الحرة ، ولكنه يتمتع بقدرة أعظم فى أداء الحركات الأكثر دقة باليد والعين ، وذلك حينما يتعامل يدويا مع أشياء أصغر وأدق . وهاهنا تصبح العمليات البدنية واليدوية أقل تكرارا من ذى قبل ، وتصبح نشاطات الطفل أكثر تنوعا ، ويستطيع أن يلعب بعدة أشياء فى وقت واحد ، حيث يمكنه أن يجمِّعها حول معانىَ محددة . إنه قادر على أن يستجيب إلى تغيرات فى الموقف الخارجى استجابة أسرع وأشمل ، كما يحدث ـ مثلا ـ عندما يريد أن يغير اتجاهه وهو يجرى ، وهو قادر على أن يفهم أمرا أو اقتراحا ويطيعه ، وعلى أن يستولى على

موقع فى لعب الآخرين ، وإذا حدث لأى شىء أن أريق أو انكسر فإنه سوف يدرك على عجل ما الذى ينبغى عمله لتصحيح الوضع . إنه يستطيع أن ينسق بين عضلاته حينما يركب الدراجة ، ثم إن استخدامه لجميع المواد أكثر تعقيدا ، وأكثر تنوعا .

والطفل فى سن الثانية لايزال لديه الكثير جدا مما يمكن أن يتعلمه عن السعة والمساحات والحجم النسبى حتى للأشياء الكبيرة . وقد وضحت هذه الحقيقة فى خبرة مر بها طفل فى الثانية من عمره . كان الطفل يحب أن يجلس فى صندوق خشبى كبير فى الحديقة ويتظاهر أنه فى قطار . وفى يوم مطير لم يستطع أن يخرج إلى الحديقة ليمارس هوايته ، فلجأ إلى صندوق أحذية صغير وحاول أن يكيف نفسه فيه لكى يستمتع بلعبته المحببة . وفى البداية وقف على قدم واحدة فى الصندوق ، وبعد ذلك وقف على الأخرى ، باذلا كل ما فى وسعه من جهد لكى يقعد القرفصاء فى داخل الصندوق الصغير كما كان يفعل فى داخل الصندوق الخشبى الكبير فى الحديقة .

وجميع الأشياء العادية التى تحيط بالطفل الصغير كالكراسى والمناضد ، والماء والنار ، والشمس والمطر ، والبرودة والحرارة ، والحيوان والجماد ، تمثل مشكلات بالنسبة له وعليه أن يتفهمها . فى كل يوم تمضى أحداث ، وهى بالنسبة لنا مجرد حقائق مسلّمة ... مشكلات حلّت منذ عهد طويل حتى إننا ـ بمرور الزمان ـ قد كففنا

عن تذكر أنها كانت تمثل مشكلات . وهذه الأحداث والمشكلات تمثل بالنسبة للطفل لغزا وتحديا . فعلى سبيل المثال ، هناك طفل فى الثانية من عمره يتطلع من نافذته فى يوم شتاء بارد ويرى الأرض والمنازل والأشجار وقد غطاها مسحوق أبيض برَّاق ، فيقول فى دهشة : « سكّر » ، ويستغرب إذ يرى « السكر » فى جميع أرجاء الحديقة والمنازل . إلى أن تتاح له فرصة لمسه وتذوقه والاستماع إلى كلمات الكبار فيعرف أن ذلك نوع مختلف من « السكر » ، أو ــ فى الحقيقة ــ « صقيع » . والطفل الصغير نفسه وُجد يرش نفسه بعلبة من مسحوق ما ، وواضح أن مسار تفكيره كان كما يلى : « إن المسحوق الذى يخرج من ثقوب صغيرة فى غطاء علبة لابد هو الذى يوضع على الطفل الرضيع » ، إلى أن يتحسسه ويشعر بصلابة هذا المسحوق ، ربما ــ حينئذ ــ يلحظ أن اللون ليس هو هو تماما ، وثمة يخبرونه أن هذا هو مسحوق آخر غير بودرة الأطفال .

وطفل آخر فى الثانية من عمره يرى أخاه وقد أحضر إلى المنزل بالونة من حفل ، ودفعها إلى أعلى فى مرح فارتفعت قرب السقف ، ولم يكن الطفل الصغير قد رأى بالونة من قبل فأخذ يستشرف إليها ببصره مدهوشا ، ثم إذا به يهرع ليأتى بكرته الكبيرة المصنوعة من المطاط ويحاول أن يجعلها تصعد إلى أعلى بنفس الطريقة . لماذا لا ترتفع كرته إلى أعلى إلى السقف مثل « كرة » أخيه . ويبدو أن الطفل

قد ذهب تفكيره إلى أن حل هذه المشكلة يكمن فى الطريقة التى كان أخوه يقف بها حينما قذف «كرته» ، لأنه ـ الطفل الصغير ـ حاول أن يضع قدميه فى نفس الوضع مثل أخيه الأكبر ، واصطنع نفس الوقفة حينما كانت البالونة ترتفع إلى السقف . وهذا ـ بالطبع ـ أدى إلى خيبة أمل ، ولن يفيق من هذه الخيبة إلا عندما يمسك بيده البالونة ويحس بالفرق من حيث وزنها ، ولعله حينئذ يلحظ الفرق الدقيق ـ من حيث المظهر ـ بين الكرة والبالونة ، ومن ثم يتحقق أن الحل يكمن فى هذه الخصائص وليس فى الطريقة التى يصطنعها أخوه فى الوقوف .

وهناك طفل فى الرابعة من عمره كان يلعب بوعاء فيه ماء ودُمى صغيرة تمثل حيوانات ورجالا ، بدأ يبكى فى أسىً حينما رأى الدمى الصغيرة وقد «صارت أصغر وهى فى الماء» ، وعندما رأى عوده الذى يعبث به فى الماء «منكسرا» حينما وضعه فى الماء . «لماذا يكسر الماء عودى ؟» . نحن الكبار قد نقول إن الدمى لا تصير أصغر ـ فى الحقيقة ـ ، وإن العود ـ فى الحقيقة ـ لم ينكسر. وإنما هما فقط «يبدوان كذلك» .

إننا نستطيع أن «نفسر» المظهر ، ولكن المظهر بالنسبة للطفل هو الحقيقة ، وهو لا يستطيع أن يفهم أن دُماه تبدو وكأنما تغيرت .

إن الحياة اليومية العادية فى عالمنا زاخرة بمواقف ملغزة كهذه

بالنسبة للطفل الصغير. وطوال السنين التى تمر ، منذ بواكير الطفولة الأولى فصاعدًا هو يناضل فى غمار التناقضات والتقلبات المحيِّرة التى تتسم بها الأشياء ... فى غمار لغز المسافات والحجوم والأشكال .. فى غمار السبب والنتيجة . وكل هذه الأشياء ينبغى أن تكون مفهومة لديه قبل أن يأمل التحكم فيها ويشبع حاجاته ، ومن ثم يحس الأمن فى عالم غريب محيّر.

بل إن هناك ما هو أكثر زخورًا بالمشكلات التى تواجه الطفل الصغير ، ونعنى به سلوك الكبار . فهناك فيض زاخر من الاتجاهات التى هى بالنسبة لنا بسيطة ، ولا جدال فى صوابها .. وهناك فيض زاخر من القيم التى تبدو واضحة ولا يمارى فيها أحد ، ولكن هذه الاتجاهات وتلك القيم بالنسبة للطفل الصغير أسئلة مفتوحة ، بل لعلها ألغاز محيِّرة تنتظر التوجيه والنضال .

تساءل طفل فى الثالثة من عمره ذات يوم « لماذا لا يفعل الناس شيئا ما إذا لم يقل الناس شيئا ما ؟ » ، وكان فى تساؤله هذا يشير إلى العلاقة المحيِّرة بين قولهم « من فضلك » و « شكرا لك » وبين منح الشخص أشياء طيبة . إن الطفل يعرف ماذا يعنى الإحساس بالتأدب من واقع خبرته الذاتية بجيشان الحب ومراعاة مشاعر الآخرين ، ولكنه لا يفهم ذلك السحر الذى تستأثر به تلك الصيغة التعبيرية ، تلك الصيغة التى يضفى عليها بعض الكبار أهمية قصوى .

وبصفة عامة يمكننا أن نقول إن الطفل الصغير ينبهر بما يفعله الكبار ، فهو يحب أن يراقب أمه وهى تطبخ وتنظف وتغسل ، وهو يرغب فى مشاركتها فيما تقوم به من نشاطات ، وهو بالمثل يحب أن يراقب وأن يقلد أباه ، كمسارى الأتوبيس ، أو سائق القطار ، أو الشرطى ، أو ساعى البريد . إنه يناضل فى سبيل أن يشعر كما يشعران ، وأن يعمل كما يعملان ، وأن يفهم أهدافهما وغاياتهما وأن يكتسب ما يملكان من مهارات .

مشكلات الشعور والسلوك :

دعنا الآن ننظر إلى بعض مشكلات الشعور والسلوك التى على الطفل بين سن الثانية والسادسة أو السابعة أن يواجهها .

فى هذه السنوات الأولى نجد أن مشاعر الطفل قوية دافقة ، وقدرته على التحكم ضعيفة ، وفهمه للمواقف التى تثيره محدود ، أما عواطفه فهى دافئة جياشة ، وأما ابتهاجه بصحبة أولئك الذين يحبهم فشديد ، ولاشىء يثير فيه القلق الموجع والغضب بقدر ما تثيرهما خيبة أمله فى أمر ما ، أو خشيته أن يفقد شيئا ما .

وفى بعض الأوقات قد تغلب عليه مشاعره فيخضع لها خضوعا ، فتراه يحتد ويعنف ، أو يرقد فوق الأرض ويرفس برجليه ويصيح ويصرخ ، ويكثر تواتر هذه الأوقات فى السنة الثالثة من عمره ،

ولكنها تتجه إلى التناقص كلما كبرت سنه . ويرجع هذا التناقص من ناحية إلى تزايد ثقته فى غيره من الناس ، ومن ناحية أخرى إلى نمو ثقته بنفسه على مر الأيام .. ولا تنبعث نوبات غضبه وحدة مزاجه من تدخلات من البيئة غير متوقعة فحسب ، مثل عدم حصوله على ما يرغب فى الحصول عليه ، أو تكليفه أن يفعل شيئا لا يرغب فى فعله ، ولكن تنبعث كذلك من خيبة أمله بسبب إخفاقه وحبوط عمله وعدم كفايته ، وحنقه حينما يحس أن غيره لا يفهمه .

وثمة مشكلة هامة تتعلق بالحياة الشخصية وتواجه الأطفال فى سن الثالثة وهى مشكلة التحكم فى المثانة والأمعاء . وسواء أكان هنالك تدريب سابق فى هذا الصدد أم لم يكن ، فإن الأطفال فى هذه الشريحة العمرية نادرا ما تتأتى لهم السيطرة الكاملة على أنفسهم ، فأى اضطراب انفعالى قد يعبر عن نفسه فى صورة انهيار مؤقت فى النظافة . ومشاعر الطفل نحو إخراج الفضلات ، وعجزه عن التحكم فيها قد يكون فى غاية الحِدّة ، فقد يبدو عليه القلق الشديد ، الذى يعبر عنه بالصياح ، والعناد الشديد ، أو النفور غير المعقول من المِبولة أو المرحاض . ومن المعهود أيضا ـ فى هذه الحالة ـ طروء صعوبات فى إطعامه ، وحساسيات مفرطة نحو الطعام ، وهى ـ بدورها ـ تمثل مؤشرا على انفعال حاد . وكلا العرضين ـ صعوبات الإطعام واضطرابات النظافة ـ تعبير عن مشاعر

الطفل نحو الناس ، ومن المستحيل أن تؤخذ على اعتبار أنها مجرد أمور موضعية أو فسيولوجية ، كما أنها لا يمكن أن تعالج فى إطار مبسط على أنها عادة من العادات . والطفل يحتاج - لكى يتغلب عليها - ليس فقط إلى تدريب خاص ، ولكن . أهم من ذلك - حاجته إلى المعونة العامة التى تتأتى من حياة سعيدة رشيدة ، ومن فرص متاحة للعب المتنوع مع الأطفال الآخرين .

إن قدرة الطفل فى هذه السن على التعاون مع الآخرين ضئيلة . صحيح أن طفل الثالثة يحب أن يكون مع أطفال آخرين ، ولكن شعوره بهم كشركاء متساوين فى نشاطاته الخاصة به لا يتأتى إلا بالتدريج . إن الطفل فى فترة الطفولة المبكرة يلجأ - طبيعيا - إلى أمه أو إلى مربيته أو إلى غيرهما من الكبار لكى يجد الرعاية والحماية والحب ، ساعيا إلى علاقة شخصية دافئة . إنه يجد من العسير عليه أن يشاركه فى الخدمات التى يقدمها له الكبار الذين يحبهم أطفال آخرون ممن فى سنه ، إن اتجاهه الرئيسى نحو هؤلاء الأطفال المشاركين هو اتجاه المزاحمة والمنافسة والعداوة . إنه أكثر استعدادا ليكون ودودا مع أطفال أكبر منه ، ولكنه شكّاك وعدوانى مع من هم أصغر منه . وقد تنتابه أحيانا نوبات من الحياء الشديد سواء مع الكبار أو مع الأطفال الآخرين . وعندما يقترب من أواسط العام الرابع تبدأ بواكير رغبة شديدة فى الاستقلال ، فهو حينئذ أكثر استعدادا للعب

مع غيره من الأطفال وهو سعيد مرح نشيط . ومن النادر ـ وهو دون سن الثالثة ـ أن يلعب لفترة طويلة مع أكثر من طفل واحد ، ويمثل رقم « ثلاثة » عدد الأطفال المألوف الذين يلعبون معا حتى سن الخامسة . وتغلب على الأطفال فى هذه السن ـ فيما يتعلق بحبهم للكبار ـ سمة التملك قوية ، تماما كما يفعلون فى حبهم للدمى واللُّعب . أما الرغبة فى مشاركة الآخرين فإنها لا تنمو بوضوح إلا بعد هذه الفترة ، وإن كان من الملاحظ ـ مع ذلك ـ أن هناك ازديادا من حيث الكم فى اللعب معهم . وثمة أساليب للاتصال بالآخرين أكثر تنوعا ، كما تزداد لقاءات المجموعات الاجتماعية وأحجامها . ويلعب الأطفال بعضهم مع بعض لفترات أطول ، ويشترك عدد أكبر فى نشاط واحد ، ومن النادر أن يصمد أكثر من أربعة أطفال فى نشاط مشترك ، ولكن كثيرا ما يفد خمسة أو ستة آخرون إلى المجموعة ثم يتركونها طبقا لبواعثهم المتقلبة ، إذ ربما ينضم البعض إلى مجموعة ما الآن ، ثم إلى مجموعة أخرى بعد عدة دقائق ، أو يغادرون المجموعة ليلعبوا منفردين ، ثم بعد لحظات يعودون ليراقبوا أو لينضموا مرة ثانية مع المجموعة الأولى .. وهكذا دواليك . إن اتجاه طفل الرابعة هو : « أنا أريد شخصا ما ليلعب معى » ، أما اتجاه طفل الخامسة أو السادسة فهو : « أنا أريد أن أذهب وألعب مع الآخرين » .

إن اللعب الجماعى يصبح بالتدرج أكثر نشاطا وأكثر تنوعا ، ذلك أن الأدوار المختلفة التى تمارسها المجموعة يوائـم بعضها بعضا ، وتظهر فيه التفردية بصورة أبرز . والأطفال بعد سن الثالثة والنصف يصبحون أقل اعتمادا على الكبار من ذى قبل ، وهم قليلا ما يلجئون إليهم من أجل الحماية أو الاستحسان والحب كما كانوا يفعلون من قبل ، وذلك لأنهم قد أصبحوا أكثر ثقة بأنفسهم فى لعبهم النشيط مع غيرهم من الأطفال ... إنهم أقل ارتيابا وأقل عدوانية إزاء الآخرين . لقد أصبحوا قادرين على التعامل مع من هم أصغر منهم سنا فى رقة وحنان ، وعلى أن يكون اتجاههم نحوهم هو اتجاه المعين لهم ، المدافع عنهم .

إن الطفل فى مرحلة الطفولة المبكرة كثيرا ما يكون خائفا وجلا من بواعثه الذاتية العدوانية نحو الآخرين ، فعندما يشعر فى نفسه بجيشان طاغ من الغيرة من طفل آخر ، أو من الغضب بسبب تدخل طفل آخر فى بعض شأنه . فإنه ــ كذلك ــ يشعر بالانزعاج من أجل هذا الطفل الآخر ، بل إنه يكون تعيسا مهموما مخافة أن يصيبه بضرر فى غمار غيرته أو غضبه . فإذا كان تنقصه خبرة اللعب مع الآخرين فإنه لن يكون قادرا على أن يقيس إلى أى مدى يمكنه أن يتحكم فى نفسه ، وإذا لم تكن اتجاهاته الإيجابية نحو الآخرين قد قوَّتها ودعمتها خبرة حقيقية فإن عدم ثقته بنفسه وخوفه من عدوانيته يظلان غير

معدّلين أو مهذّبين . وفيما بعد ، حينما يحين وقت سنوات الدراسة العادية نجد أن الطفل الذى لم تتح له من قبل خبرة اللعب مع الآخرين فى موقف يختلف كل الاختلاف عن موقف أولئك الذين تعلموا ـ من ناحية ـ أنه من الممكن أن يصيحوا ويجروا ، وأن يأخذهم فى بعض الأحيان الغضب والغيرة دون أن يصيبوا أحدا بضرر يذكر » . وتعلموا ـ من ناحية أخرى ـ أن الأطفال الآخرين إنما هم أصدقاء وأنهم معاونون ، كما أنهم منافسون . إن الطفل فى مرحلة الطفولة المبكرة قد يتطلب فى نفسه مستوى مستحيلا من الخير والكمال ، وقد يشعر بالمرارة والقلق إذا لم يتحقق له هذا المستوى .... إذا رأى نفسه ـ مثلا ـ يتصرف بنزق وانفعال وغضب .

إن الحياة الاجتماعية النشيطة مع الآخرين تعطيه الثقة فى نفسه ، وفوق هذا فإنها تعطيه روح الاتساق والتوافق .

إن الطفل الصغير ـ فى مجاهدته لرغباته ونزعاته ... لحبه وعدوانه ... لضعفه ونقائصه ـ يستعين بطرق كثيرة مختلفة ليضمن بها الحصول على حب الآخرين ، وليحدّ بها من توتر مشاعره . وهناك خصيصة تتميز بها هذه السنوات وهى حدوث « الفوبيا » ، وهى مخاوف مغينة لها أنواع عديدة ، منها الخوف من لدغة الحشرات وعضة الحيوانات ، والخوف من الظلال المظلمة والريح العاصفة ،

أو من الفحَّام أو جندى الجيش أو رجل الشرطة ، أو خوف الطفل من أن يستحم أو يغسل شعره . ومثل هذه المخاوف لها تأثير مضاعف فى الطفل فهى حقيقية ومحسوسة وقاسية بالنسبة له .

وفى الأغلب الأعمّ لا يمكن ألبتة السيطرة عليها ، ولكنه ـ على أية حال ـ يجنى من ورائها حب الكبار وحمايتهم ، والشعور بأن الحيوانات نفسها هى التى تلدغ أو تعض ، وأن الفحام نفسه هو القذر ، أما هو ـ الطفل ـ فبراء ولا ذنب له .

ولكى نساعد الطفل على أن يتخلص من مخاوفه هذه كما تخلص من فورته ونوبات غضبه ، فإنه يحتاج إلى الخبرة التى تنمى ثقته فى قدرته على أن يكون نظيفا وألوفا ... أن يكون حسّاسا وسلس القياد كوالديه ، والتى تعينه على تعلم كيف يصنع الأشياء بدلا من أن يفسدها ... كيف يحمى بدلا من أن يهاجم .. كيف يثق فى حبه هو بدلا من أن يكون ـ بقسر وإجبار ـ متحديا عنيدا . ولاشك أن اللعب مع الأطفال الآخرين فى البيئة المحيطة بما ينمى عطفه وحنانه ومهارته سوف يساعد كثيرا فى هذا الصدد .

إن اللعب مع الأطفال الآخرين يولد فى الطفل ثقة فى نفسه فضلا عن الثقة فى أصحابه الصغار ، كما أنه يساعده ليس فقط فى التقليل من شعوره بالشك فى غيره من الأطفال والعدوانية عليهم .. ومن ثم فى التقليل من اعتماده على الكبار ـ بل إنه ـ كذلك ـ يوفر له

متعة المشاركة النشيطة ويساعده على اكتشاف الطريقة التي يمكنه من خلالها أن يحقق مطالبه العملية أو الخيالية مع الآخرين ، ومن ثم يضع الأساس لحياة اجتماعية تعاونية فيما يستقبل من سنوات الدراسة .

سوف يجد الطفل أن هناك أشياء كثيرة يستطيع أن يقوم بها بمعاونة الآخرين . وأن هناك أدوارا كثيرة متنوعة يمكن أن يؤديها معهم ، على حين لم يكن ليستطيع أن يؤديها وحده . الواقع أن كل اهتماماته الإبداعية والفنية إنما تزدهر وتتسع بمصاحبته لأطفال آخرين ، وأن خبرات الطفل فى مجموعة صغيرة تحت ظروف سعيدة ستظل أبدا ــ وفى كل النواحى ــ أكثر ثراءً من خبرات الطفل المنفرد أو الذى ينتمى إلى أسرة صغيرة فى الحضانة الخاصة أو الروضة ، وهذه الخبرات الحقيقية ــ خبرات المشاركة فيما يتبادله الطرفان من إشباع ــ تعمّق إيمان الطفل بنفسه ، وتقبله للحياة بصفة عامة .

مشكلات اللغة والفهم :

لا يكاد الطفل يبلغ السنة الثانية من عمره حتى يبرز اهتمامه الشديد بالكلمات واستخدامه لها ، فتراه متشوقا إلى القدرة على التعبير عن رغباته وأفكاره فى كلمات ... إلى توصيل انطباعاته عن الأشياء ... إلى السؤال عما يريده ، وبصفة عامة ، إلى أن يتيسر له

التواصل الحميم مع غيره من الناس من خلال الحديث الذى يرى أن الكبار والأطفال الذين يكبرونه سنا يتبادلونه فيما بينهم . وإذا نحن راقبنا وجه الطفل وهو يستمع إلى مناقشة ما ولاحظنا الحماسة التى يصطنعها وهو يحاول أن يقلد أحاديث من يكبرونه ، أو حنقه حينما يعجز عن إفهامنا ما يريد ، بسبب قصور محصوله اللغوى أو بسبب عيب فى نطقه ـ إذا راقبنا وجهه فى هذه الحالات فسوف نرى مدى رغبته القوية فى السيطرة على هذه الأداة الرائعة من أدوات العيش .

إن الطفل العادىّ فى الثانية من عمره يبدأ فى استخدام الكلمات فى تراكيب حيث تحتوى الجملة فى حديثه ـ كقالب عام ـ على اسم وفعل ، علما بأنه يظل يستخدم كلمات مفردة تؤدى كل منها الوظيفة التى تؤديها الجملة[1] ، ولكن الأطفال ذوى الذكاء المرتفع يحصّلون ذخيرة لغوية بسرعة ، وينمو لديهم شغف بتعرف الأسماء عن طريق سؤالهم « ماهذا ؟ » ، « ماذاك ؟ » طوال اليوم . ليس هذا فحسب ، بل إنهم يبذلون جهودا خارقة لكى يصوغوا كل ما لديهم من خبرات فى كلمات ، فمثلا ، قد سجلت أم لطفل صغير كيف أنه يقضى معظم يومه فى إصدار تعليقات متتابعة على كل ما يقع من أحداث وكل ما يتذكره من أنشطته هو أو أنشطة غيره من الناس . وهناك كثير من

---

(١) كل ما ساقته المؤلفة فى هذه الفقرة من حقائق لا يقتصر على الطفل فى اللغة الإنجليزية ، وإنما ينطبق على الطفل فى اللغة العربية تماما (المترجم) .

الأطفال ـ بعد أن يأووا إلى فراشهم فى الليلليناموا ـ يُسمعون وهم يستعيدون الخبرات التى مروا بها فى يومهم ، إما فى خيط من الكلمات المفردة ، وإما فى محاولات لجملة قد تكون فى بعض الأحيان مستخدمة استخداما صحيحا ، وقد تكون فى أحيان أخرى غير صائبة . ويستطيع المرء حين يسمع الأطفال أن يلحظ ابتهاجهم بالحديث ، والمتعة التى يجدونها فى محاولتهم أن يجعلوه واضحا مفهوما .

وحينما تكون ذخيرة الأطفال من الكلمات الحقيقية غير وافية فإنهم قد يخترعون كلمات من لدنهم ، أو يتفوهون بإيقاعات معبّرة ... بخليط من الكلمات والعبارات ... بنُتَف مبتورة من أحاديث الكبار . والأطفال فى هذه السن يفهمون ـ عادةً ـ من الألفاظ أكثر بكثير مما يستخدمون ، ويبدو ذلك واضحا من استجابتهم إلى القصص التى يسمعونها أو الأوامر والتوجيهات التى يؤخذون بها . وطبيعى أن يكون القاموس اللغوى للأطفال الأذكياء والذين ينتمون إلى بيوت مثقفة أكبر بكثير من قاموس من هم أقل ذكاء ، أو أولئك الذين ينتمون إلى بيوت لا تكاد تجد للكتب والأضابير فيها مكانا . وفوق هذا فإن الأطفال الذين لا تتاح لهم الفرص التى يتحدث إليهم فيها الكبار أو أقرانهم الأكبر سنا ، أو فرص اللعب معهم ـ يكونون أضعف فى قدرتهم على الحديث ـ فى أى مرحلة عمرية معينة ـ من أولئك الذين

يتاح لهم حافز الحوار والمحادثة .

إن ابتكارية الأطفال كثيرا ما تظهر فى اللغة . فمثلا ، هناك بنتان صغيرتان ، إحداهما فى الثانية والنصف من عمرها والأخرى فى الثالثة والنصف ، تجدان تسلية ومتعة فى نحت كلمات جديدة من كلمات على سبيل الدعابة ، وكثيرا ما تختصران بعض مقاطع الكلمات[1] . الواقع أن كثيرا من الأطفال فى سن الثانية والثالثة يخترعون صيغا تعبيرية تقوم على حكاية الأصوات ، فمثلا ، حينما يقول أحد الأطفال « السماء تمطر » فقد يصغى طفل آخر ثم يعقب « بيت باتينج » « pitpatting »[2] .

وجنبا لجنب مع حب الطفل لتكرار الحركة نرى أنه يستمتع بالعبارات المنغومة ، وأغانى الطفولة المسجوعة ، والترنم والدندنة ، وبترديد التعبيرات الإيقاعية فيما يرويه من خبراته اليومية ، فتراه يقول « وأنا جئت إلى المنزل ، ودادى جاء إلى المنزل وجونى جاء إلى المنزل[3] » ، وهكذا ....

---

(١) ضربت المؤلفة أمثلة من كلمات باللغة الإنجليزية كانت الطفلتان تنحتها أو تختصرها . والظاهرة ملحوظة فى اللغة العربية مع أطفالنا الصغار (المترجم) .

(٢) لاحظ أن الطفل ـ بهذه اللفظة ـ يحكى صوت سقوط المطر ، ولكن المعاجم تنص على أن لفظة pit-a-pat تعنى (طقطقة ، أو خفقان) كما أن من بين معانى لفظة pat اللمس أو المشى بضربات إيقاعية (المترجم) .

(٣) مما سجله المترجم ـ فى دراسة له عن لغة الطفل المصرى ـ ما جاء فى حديث=

وبغض النظر عن الفوارق فى الظروف وفى القدرات الطبيعية ، فإن مشاعر الطفل تلعب دورا بارزا فى نمو حديثه ، فبعض الأطفال تُكبح قدرتهم على تعلم الكلمات واستخدامها ، أو يصابون بعيب معين من عيوب الكلام مثل التلعثم والتلجلج ، ويرجع ذلك إلى أن هذه الوظيفة قد شُحنت بانفعالات شديدة .. والواقع أن أى تعاسة أو صراع أو مشكلة مؤقتة فى البيت ، مثل الخوف أو الغيرة من طفل آخر أو فقدان مربية أو جد عزيز أو جدة ، أو التغيير الكثير المستمر للوسط المحيط بالطفل ، أو الأمراض الجسدية ـ قد تؤدى إلى بعض التعطل فى النمو السوىّ للكلام . أما الحياة السعيدة الآمنة ، والعلاقات الطيبة مع الوالدين والإخوة والأخوات فإنها تلعب دورا كبيرا فى تعزيز استخدام الطفل للغة ، سواء من أجل التعلم ، أو المهارة إن كثيرا من الألفاظ التى تعتبر بالنسبة لنا محايدة قد تصبح بالنسبة للطفل الصغير معبأة بالانفعال ، ربما عن طريق عدم الفهم ، كما يحدث حينما يرى طفل صغير بعض الجنود الاسكتلنديين يرتدون « الكيلت »[1] ثم يسمع لفظ « كيلت » فيحسبها « كيلد :

= طفل عن موقف حزين : « وماما عيطت ، ونينه عيطت ، وأخويا غبريالى عيط ، وأخويا رجائى عيط .. وأنا عيطت » : محمد محمود رضوان : الطفل يستعد للقراءة : ص ٤٠ .

(١) لباس ذو ثنيات طولية يرتديه أفراد الفرق الاسكتلندية فى الجيش البريطانى . (المترجم)

Killed » التى تعنى « قُتل » أو « مقتول » ، فليس من المستغرب أن يستشعر الرعب والفزع من كل جندى يمر به .

وعندما يكبر الطفل من الثالثة إلى الخامسة فإن قاموسه اللغوى يتسع كثيرا ، كما تنمو قدرته على التعبير عن رغباته وطلباته وخبراته وآرائه بسرعة كبيرة ، فتصبح جمله أطول وأكثر تنوعا فى بنائها ، أما كلامه فيظل فى الأغلب الأعم ملازما ومتسقا مع نشاطاته فى البناء أو الرسم أو التلوين أو الحفر ، واللعب بالدمى ، وأحلام اليقظة ، أما أوقات تعاطى الوجبات فهى الفرص المحببة لكى تنوب عن الكلام . أما التحدث بحرية ، وأما تبادل الأفكار ، فلا يبدآن إلا فى المناسبات التى يتاح فيها الارتباط الوثيق بالنشاط ، وبالخبرة الواقعية . إن طاقته تقصر عن تحمل حوار مثل هذا ، فهو فى حاجة إلى فرصة للتحدث مع الذين يجيدون الحديث . والكبار – أو من يكبرونه من الأطفال – الذين لا يستنكفون عن الاستماع إلى ما يرغب فى أن يقوله ، والذين يستجيبون له استجابة طيبة ، هم أكبر قيمة بالنسبة له من دروس معينة يتلقاها فى فن الحديث الواضح . إنما تنمو اللغة أعظم ما يكون النمو حرا وشمولا حينما يكون ثمة مثير من الرغبات والانفعالات .. وفى بداية هذه الفترة يتحدث الأطفال كثيرا عما يفعلون دون أن يتوقعوا كثيرا من الإجابة ، ولكن الذى يحدث هو أن هناك مناقشات أصيلة ، بل ومجادلات حول ما يقع من أحداث ، وهى تدور دائما

فى بعض مواقف اللعب العملية .

وهناك قدرة ترتبط ارتباطا وثيقا بنمو الحديث ، ونعنى بها قدرة الطفل على التعليل . ذلك أنه عندما يتعلم الطفل استخدام الكلمات فإنه يستطيع أن يستثمر خبرات الآخرين استثماراً فعالا ، وأن يتعامل مع بعض العمليات غير المباشرة وغير المحسوسة ، أو التى تقل ــ فى هاتين الخاصيتين ــ عن العمليات المتضمنة فى التعامل الواقعى مع الماديات المحسوسة . فاللغز الذى واجهه الطفل الصغير الذى رأى الثلج المتساقط لأول مرة قد وُضّح له حينما قدمت له كلمة « ثلج » لكى تحدد التفرقة بين هذا المسحوق الأبيض ، والمسحوق الأبيض الآخر المعروف له ويسمى « سكّر » . إن التعليل فى الكلمات يبدأ بالنسبة للأطفال الأذكياء فى العام الثالث ، فمثلا ، عندما يكون الطفل الذى فى الثانية من عمره عائدا إلى منزله من جولة على قدميه فى يوم مطير ، ويخرج منديله لكى يجفف به اللوحة التى على البوابة ، وتقول له أمّه : « ما ينبغى لك أن تفعل هذا ، إن الريح سوف تجففها » . فيقف الطفل لحظة وهو يفكر ثم يقول : الريح تجففها ؟ هل مع الريح منديل ؟ ــ حينما يقول الطفل هذا فإنه يكون مسترجعا لخبرته السابقة ، وقافزا بفكره قفزة تخيّل منطقى بنّاء لكى يحل مشكلة : كيف تستطيع الريح أن تجفف لوحة البوابة ؟ . والطفل الصغير نفسه يرى ذراع السيمافور تتحرك منخفضة إلى أسفل فى خط

السكة الحديدية التى تستثير اهتمامه بدرجة كبيرة فيقفز فى مرح وبهجة ويقول : « الإشارة أسفل » ثم يقول فى التو : « الإشارة[1] أسفل » ـ « الرجل وضعها أسفل » ، وبعد لحظات قليلة من التفكر يقول : « الرجل وضعها أسفل .. الرجل جاء بسلّم ، الرجل وضعها أسفل » . وهكذا نرى أنها قطعة رائعة من التفكير والتعليل معتمدة على الخبرة السابقة عن طريق المنطق اللفظى .

وعلى مدى هذه السنوات ، نرى أن المنطق اللفظى ـ بينما هو دائما بسيط جدا ، ومحسوس جدا ، ومباشر جدا ـ فإنه مع ذلك يدل على نمو مستمر . فالطفل باستمرار يحاول أن يسيطر على المشكلات التى تخصه من خلال الاعتماد على خبرات الآخرين فى الصيغة العامة للكلمات ، وهو ـ منذ سن الثالثة فصاعدا ـ يسعى إلى الإيضاح اللفظى شيئا فشيئا بشغف وحماسة ، وأسئلته التى يوجهها فى البواكير الأولى هى : « ماهذا ؟ » ثم يعقبه فى التو « من أجل ماذا ؟ » وبعد قليل « لماذا ؟ » ، وفى استخدام أطفال الرابعة والخامسة لأسئلة الاستفهام المصدرة بالأداة « لماذا ؟ » نلاحظ المجهود الضخم الذى بذل فى تنظيم الخبرة بطريقة منطقية معقولة . « لماذا لا ينسكب الحبر من قلمى حينما أمسك به وهو منكس إلى أسفل ؟ .

(١) أوردت المؤلفة كلمة إشارة signal على لسان الطفل محرفة إلى sigernal فى المرتين (المترجم) .

وأسئلة مثل : «كيف يستطيع جاموس البحر (سيد قشطة) أن ينزل إلى حوضه مع أن رجليه الصغيرتين الخلفيتين بعيدتان جدا عن رجليه الصغيرتين الأماميتين ؟ » . نموذج من محاولات الطفل فى سبيل حل الألغاز التى تواجهه .

إن القدرة على التعليل فى ألفاظ وعلى إفراغ الخبرة فى صيغة تنمو فى الطفل الصغير من خلال الفرص التى تتاح له ليتحدث ، وليوجه أسئلة ، وليصوغ مقولات بينما يكون ـ واقعيا ـ منهمكاً فى ممارساته العملية . إن الخبرة الثرية ، والتى تناقش فى حرية هى الوسيلة الوحيدة ليتعلم الحديث تعلما حسنا ، وليفكر تفكيرا منطقيا .

حاجات الطفل

دعنا الآن نناقش فى إجمال الأساليب التى يمكن من خلالها أن تقوم بيئة الطفل ومن فيها من أناسىّ بمعاونته فى حل المشكلات الكثيرة والمتنوعة ، تلك المشكلات التى تتعلق بالتعلم ، والشعور ، والفهم ، والتى يواجهها فى حياته .

علاقات إنسانية دافئة :

ينبغى أن يكون واضحا ـ قبل كل شىء ـ أننا لا نستطيع أن نبدأ فى معاونة الطفل فيما يواجهه من صعوبات رئيسية ما لم نكن على دراية بمشاعره : إلى أى مدى هى حقيقية ؟ إلى أى مدى هو إنسان ، وإلى أى مدى هو أشبه بنا ؟ وتأثراته الوجدانية : إلى أى مدى هى دافئة ؟ وغضبه وخوفه : إلى أى مدى تبلغ حدتهما ؟ وحزنه وإحساسه بالقصور : إلى أى مدى يعرضانه لليأس والقنوط ؟ . الواقع أن أية طريقة تربوية قائمة على تصور أن الطفل آلة بسيطة من جسد ، أو مجرد مخلوق قوامه العادة والاستجابة

المنعكسة ــ مثل هذه الطريقة لا يمكن أن تعضده فيما يواجه من مشكلات عميقة . ومثل هذه التصورات قد أدّت بكثير من الناس فى السنوات الأخيرة إلى أن ينكروا على الطفل تعبيرنا الطبيعى عن حبنا له بالملاطفة والتدليل الحنون ، وعن الاستجابة البسيطة لبكائه وتلهفه على صحبة من يؤنسه . وفوق كل هذا فإن الطفل فى حاجة إلى علاقة حميمة دافئة ، وإلى مشاعر المودة التلقائية .

إن النمو فى المهارة والثقة والوفاق الاجتماعى يتأتى من خلال ما يتهيأ للطفل من حركة مشبعة ممتعة ، ومن تعبير عن رغباته واستجاباته الحميمة نحو الآخرين ، ومن طعام يستمتع بتناوله ويكون فى نفس الوقت مغذيا متوازنا . إن المرح والاستمتاع بالحياة لهما أثرهما فى هيئة الطفل ، وفى هضمه للطعام ، وفى قدرته على التعلم ، تماما كما يتأثر بالطعام والملبس والتمرينات الرياضية .

الخبرة الحقيقية النشيطة :

وثمة أمر جوهرى آخر بالنسبة للنمو السعيد ، وهو الخبرة الحقيقية النشيطة . لا يستطيع أحد أن يحل للطفل مشكلته ، وإنما تحركه هو ، واستكشافه ، وتجريبه ، ولعبه بالدمى واللُّعب المناسبة لمرحلة نموه ، ــ كل هذه النشاطات هى التى تأخذ بمهارته وتعلُّمه إلى الأمام . إن الإجابات عن أسئلته هو لا عن أسئلتنا نحن ، هى التى تزيد علمه

ومعارفه . إن الجهد الذى يبذله لكى يفهم نشاطات الكبار ، وفوق كل شيء اهتمامه بالعمليات البيولوجية الأولية للأسرة مثل التسوق والطهو وإعداد الطعام والغسل والتنظيف واستخدام الماء والنار ـ كل هذا يشكل حجر الزاوية فى اهتماماته العقلية ، ومن هذه ، تنبثق رغبته فى أن يقرأ ويكتب . ثم إن فهمه ـ فيما بعد ـ للعدد والجغرافيا والتاريخ ، وللأدب والفنون الإنسانية ، إنما غرست جذوره الأولى فى هذه الاهتمامات الأولية بحياة أسرته وبيته .

وهكذا ، فإن حاجته لا تقتصر على فرصة لكى يجرى ويثب ويتسلق ... لكى يبنى ويصنع النماذج ويرسم ويلون ويعد ويقيس ، ولكنه فى حاجة كذلك إلى رفقة الكبار الذين يتحلون بالصبر ومهارة الإجابة عن أسئلته حينما يعجز عن الإجابة عنها بنفسه ، والذين يزودونه بالمواد اللازمة لأنشطته كلما تقدمت وتطورت من يوم لآخر . إنه فى حاجة إلى بيئة سخيّة .. سخية فى دفء المشاعر ... سخية فى فرص النشاط . إنه فى حاجة إلى مواد ملائمة لكى يعمل بها ، أما أولئك الذين يعملون معه ، فحاجته إليهم هى أن يكون اتجاههم نحوه هو اتجاه التشجيع والحماسة والإيمان .

ـــس .

يعتبر الأمن من الحاجات الأساسية للطفل الصغير ، فبدون الأمن كخلفية لحياته لا يملك الجرأة لكى يستكشف ويجرب ، أو يعبر عن مشاعره ، أو يرتاد آفاق علاقات جديدة مع الناس .

وللأمن أوجه كثيرة :

(أ) فأول كل شيء ، هو فى حاجة إلى النظام والروتين والإيقاع فى خطته اليومية ، فالوجبات المنتظمة والراحة والرعاية لا تقتصر أهميتها على الناحية الصحية البدنية للطفل ، وإنما لها أيضا أهمية قصوى لمشاعره . إن القالب الإيقاعى فى تفاصيل الحياة اليومية ـ كما هو فى الموسيقى وفى الشعر ـ يعنى ـ بالنسبة للطفل الصغير ـ الحياة والحب والأمن . وكذلك فإن عادات الطفل ـ فيما يتعلق بصحة البدن ـ لها نفس الأهمية ، فالعادة تيسر على الطفل اتخاذ القرار وضبط النفس ، وتخفف من توتر المشاعر . ولكن إمكانية تكوين عادات طيبة فى الطفل تتوقف على النظام والترتيب والإيقاع فى سلوك أولئك الذين يحيطون به ، وعلى النمط العام لحياته .

(ب) ثانيا ، إن الأمن يعنى اتجاها مستقرا نحو الطفل ، من قبل أولئك الذين معه ، فإذا كان الكبار الذين يعايشونه متقلبين وتعوزهم

الثقة فيما يسلكون فإن عليه أن يظل متيقظا يرقب ابتساماتهم وتقطيبات وجوههم فى تركيز مؤلم .. إنه لا يستطيع أن يتعلم كيف يسيطر على مشاعره إذا لم يعلم أين تهب الريح من جانبهم . إنه فى حاجة إلى الصفاء وإلى الحب المستمر من الأم والمربية على السواء .

(جـ) وأخيرا ، فإن الأمن يعنى الثقة فى قدرة الكبار على مساعدته على التحكم فى نزعاته العدوانية والهدامة . إنه فى حاجة إلى الإحساس بأنهم لن يدعوه يعضّهم أو يركلهم أو يؤذيهم ، ولن يدعوه يتلف كل شىء أو يوسخه أو يحطمه . إنه فى حاجة إلى أن يعلم أنهم يحبونه على الرغم من هفواته وغضباته ، وأنهم لن ينتقموا لأنفسهم منه بفرض عقوبات قاسية عليه . ومع هذا فإن مجرد التغاضى والتساهل لن يساعد فى شىء ، فالطفل يتوخى أن يأتيه الضبط من جهة خارجية بسبب أن قدرته الداخلية على ضبط نفسه ضعيفة ، وهو يصبح متخوفا من غيرته هو من غيره من الأطفال ومن غضبه عليهم ومن رغباته المدمّرة ما لم تسنده قرارات الكبار وتحصنه ضد هذه النزعات . فإذا كان الكبار متقلبين فى أمزجتهم فإن الطفل يشعر أن باستطاعته أن « يلعب عليهم » وأن يتصرف بما يرضيهم أو يسخطهم ، وهكذا يصبح خائفا مما يملكه هو من سلطة .

إن الطفل الصغير يحب أن يطيع حينما تكون الطاعة معقولة ، وحينما يكون الذين يطلبونها هم الكبار الذين يسمحون له بحرية

اللعب ، والذين يتفهمون بواعثه الهدامة . الحق أن الاستخدام الصحيح لهيبة الكبار وسلطتهم فى الحفاظ على العدالة والنظام ، وفى تنمية بواعث بناءة ـ ضرورى للطفل تماما كضرورة إتاحة الفرصة له ليؤكد ذاته بالطرق الملائمة .

فرص تأكيد الذات ، والاستقلالية :

وفرصة تأكيد الذات ، والاستقلالية ، حاجة أخرى من حاجات نمو الطفل . إنه فى حاجة إلى أن تتاح له الفرصة ليطعم نفسه ، وليحاول ويجرب فى اللعب ، وليقفز ويتسلق ، وليستغنى عن اليد التى تحميه ، وليقع فى أخطائه الخاصة . وإنها لمزيّة كبيرة أن يعرف الكبار شيئا ما عن متوسط العمر الذى تظهر فيه المهارات التى تصحب النمو ، ويتساوى مع ذلك فى الأهمية أنهم ينبغى أن يتعرفوا الفوارق بين طفل وآخر ، وألا يحاولوا أن يرغموا كل الأطفال على أن تكون خطواتهم متساوية . وكذلك فإنه مما يعين الكبار الذين يتولون الطفل عونا كبيرا أن يعرفوا شيئا عن العمر العادى الذى تبلغ فيه المهارات الجسمية المختلفة كمالها ، وأن يتمكنوا من معرفة ما إذا كانت حركة التحدى التى تصدر عن الطفل ـ فى الحقيقة ـ دفعة نمو ، فى سبيل الاستقلالية ، التى يمكن أن تتحقق بما أن الجسم والعقل أصبحا مستعديْن لها ، أم أن هذه الحركة ـ على العكس من ذلك ـ

تعبير عن تعاسة مكنونة فى داخله ؟ وفوق هذا ، فإن الطفل ينمو نموا مزدهرا إذا كان الكبار الذين يعايشونه تسعدهم استقلاليته النامية ، وإذا لم يكتفوا بمجرد قولهم : إنه « ينبغي » أن يطعم نفسه ، أو يلبس حذاءه بنفسه الخ . ولكن المهم أن يستمتعوا حينما يرون أنه يستطيع أن يقوم بهذه الأفعال . إن الاستقلالية التى يحصلها الطفل كثمرة لحبّه والابتهاج بنموه لهى أعظم قيمة بالنسبة له من الاستقلالية التى ينتزعها من أبويه نتيجة تمرده ، وحدة مزاجه ، وتحدياته .

هناك أوقات يحتاج فيها الطفل إلى الراحة والملاطفة والتربيت والتشجيع والسلوى . فحينما تستبد به المخاوف ، وحينما يبلغ قلقه بسبب بواعثه الهدامة الذروة ، أو حينما يخشى أنه لن يرى أمه ثانية أبدا بسبب أنها هجرته عقب أن كان غاضبا أو قذرا ، حينئذ فهو فى حاجة إلى حب فياض وإلى مواساة . وحينما يكون الطفل حيران أمام أشياء لا يستطيع أن يفهم فحواها بجهده الخاص ، فهو فى حاجة إلى إجاباتنا الشافية عن تساؤلاته . ولكن هناك أوقات أخرى يكون ما يحتاج إليه احتياجا ملحا فيها هو فرصته السانحة لكى يجرب ويستكشف ... لكى يبحث عن إجابات عن أسئلته ... لكى يدير لنا ظهره ويمضى هو فى حل مشكلاته الخاصة . إن الكبار الذين يتعهدون الأطفال الصغار فى حاجة إلى أن يمتلكوا حاسة الملاءمة والتناسب ... أن يعرفوا متى نعطى ومتى نمنع ... متى نرى الطفل

كأنما هو رضيع ، ومتى نستجيب له كرجل ، باعتبار ما سيكون .

اللعب مع الأطفال الآخرين :

وهكذا نصل إلى الحاجة الرئيسية للطفل الصغير ، ونعنى بها فرصة اللعب مع غيره من الأطفال . وكما رأينا حينما تحدثنا عن مشكلاته المتعلقة بالشعور والسلوك ، فإن الطفل لا يمكن أن ينمو ليصبح كائنا اجتماعيا إلا بواسطة الخبرة الاجتماعية التى تتأتى من المعيَّة واللعب المتبادل ، وإلا بواسطة اكتشاف أن المخاطر التى يخشى وقوعها من الاختلاط بالأطفال الآخرين ليست حقيقية ، وأن الضرر الذى يمكن أن يوقعه المرء بهم ضرر محدود ، على حين أن المكاسب التى تتحقق فى الاتجاهات الأخرى هى مكاسب حقيقية وإيجابية . إن كثيرا من متاعب الطفل الصغير فيما يتعلق بمشاعره نحو الكبار تنتهى فى لعبه مع أترابه ، فمن الملاحظات السائدة فى رياض الأطفال أن صعوبات التغذية تختفى تماما حينما يتناول الأطفال وجباتهم معا ، وأن النزوع إلى مص الأصابع يقل إلى حد كبير ، وأن فزعات الليل ـ كذلك ـ كثيرا ما تختفى حينما يلتحق الأطفال بالرياض ، كما أن شهيتهم إلى الطعام تزداد ، وصحتهم الجسمية تتحسن بصفة عامة .

وثمة ضروب من القلق مرتبطة ـ على سبيل المثال ـ بإحساس الطفل بعجزه وقلة حيلته وضآلته ... بخُرقه ولَخْمته ... بخشيته أن

يفقد أبويه إذا جاء أطفال آخرون . ولعب الطفل مع غيره من الأطفال يحد من هذا القلق ، ويغذى نموه وإحساسه بالأمن والسعادة ، ويساعده على التقلب على صعوبات نموه الفطرية .

وعلى أية حال فليس مجرد وجود أطفال آخرين هو الذى يؤدى إلى النتائج المشار إليها آنفا ، ولكن بيت القصيد هو الخبرة الاجتماعية النشيطة ـ وتتضمن التغلب على مشكلات المنافسة والعدوان من خلال اللعب الحر ، وتأليف المجموعات وفضّها طبقا لما يقتضيه الموقف ، والقيادة والاتّباع ، بل وحتى المشاجرات والعراك على شريطة ألا تتجاوز الحدود المعقولة . إن الطفل لا يستطيع أن يحقق الاستقلال عن الكبار والثقة بنفسه وبما يملكه من مواهب إلا إذا أتيحت له فرصة اللعب الحر مع الأطفال الآخرين . إنه لا يستطيع أن ينمّى فنون التعبير فى اللغة والفن فى استيعاب وحرية إلا إذا شارك غيره من الأطفال فى هذه المواهب . والطفل فى الثانية من عمره ـ كذلك ـ يحتاج إلى علاقة وثيقة مع الكبار ، وفى هذه السن ينبغى أن تكون مجموعات الأطفال فى الحضانات صغيرة بالنسبة إلى عدد الهيئة المشرفة ، ولكن ، حتى فى سن الثانية ، فإن اللعب مع الأطفال الآخرين تحت ظروف مواتية يهيئ متعة عظيمة ومساندة للطفل .

ولو أننا سئلنا أن نحدد حاجة سيكلوجية واحدة رفيعة للطفل

الصغير لكانت الإجابة على سبيل الجزم هى « اللعب » ـ فرصة اللعب الحر فى صوره المختلفة . إن اللعب هو وسيلة الطفل للعيش ، ولتفهم الحياة . لقد قيل الكثير من قبل عن متعة الطفل فى المهارات الجسمية والعون الذى تسهم به فى تعلمه وفهمه . وثمة جانب آخر من جوانب لعبه هو اللعب الإيهامى ، فهو يحتاج إلى فرصة من أجل اللعب الخيالى الحر الذى لا تعوقه تعليمات الكبار وما يفرضونه من حدود ... إنه فى حاجة إلى فرص لهذا الضرب من اللعب بقدر حاجته إلى فرص الجرى والوثب ونظم الحبات فى السلك . والواقع أن فهمنا لعقل الطفل ، والطريق الذى يسلكه فى نموه ، قد ازداد عمقا واتساعا فى السنوات الأخيرة ، وكان هذا فتحا جديداً ..

وحتى الطفل فى الثانية من عمره يبدى شواهد على تخيل واضح ... أحيانا فى ألعاب صامتة ، وأحيانا يعطينا بعض إشارات توحى بما يجول فى خاطره وذلك فى نُتَف صغيرة من الحديث . ولكنه لا يملك إلا القليل من مهارة التعبير عن تخيلاته بوضوح وبلفظ منطوق حتى إنك قد تغفل عنها وتظن أنه « فقط » يتسلق ، أو يجرى ، أو يجلس ساكنا ، بينما هو ـ فى الحقيقة ـ إنما يتسلق لكى يكون « كبيرا مثل بابا » ، وإنما يجرى لكى « يكون » قاطرة أو كلبا ، وإنما يجلس ساكنا وهو يمص أصابعه لكى يتوهم نفسه ـ مرة ثانية ـ رضيعا بين ذراعى أمه ..

إن الطفل فى الثانية من عمره يستخدم جسمه فى لعبه الإيهامى ، نظرا إلى أنه لا يملك إلا قليلا من مهارة السيطرة على المواد والأدوات . فى كل آونة وأخرى نرى الطفل فى هذه السن يعطينا لمحة واضحة عن عالم الخيال الواسع الذى يكمن وراء أفعاله البسيطة . هناك ـ مثلا ـ طفلة صغيرة لم تتجاوز ستة عشر شهرا من عمرها لعبتها المحببة هى أن تلتقط نتفة وهمية (يفترض أنها من طعام) من حجرة الطعام وتعبر الحجرة و (هى) بين السبابة والإبهام كأنما تحرص حرصا شديداً على ألا تفلت منها ، ثم تضعها بالتبادل فى فم كل من أمها وأبيها كأنما تطعمها .

والطفل ذو العامين الذى وجد متعة حينما قلمت أمه أظفاره ، أخذ يتوسل إلى أمه أن تقلمها مرة ثانية ، فلما أصرّت على أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك بما أن أظفاره قد أصبحت قصيرة فعلا أخذ يقوم بحركة كما لو كان يفتح بعض الصنابير الوهمية ، ويجذب إلى يديه قفازا وهميا ، ثم التفت إلى أمه قائلا : « لقد حصلت على يدين جديدتين ، قصى أظافرى الآن » .. وهكذا حل مشكلة خيبة رجائه بذلك العمل السحرى .

إن الطفل قبل الثالثة والنصف من عمره يستخدم الأصونة والسلالم والوسائد ، وكل ماهو كبير الحجم فى بيته كوسائل للتعبير الإيهامى . والصيغة الأكثر شيوعا للعب بالدمى فى هذه السن هى

وضعها فى السرير وتهيئة الفراش لتنام ، ثم أخذها ثانية ، وتدليلها وإراحتها ، ثم وضعها وتهيئة الفراش مرة ثانية فى صبر وأناة .

وفى هذه السن كذلك يخترع الطفل رفقاء وإخوة وأخوات فيتحدث إليهم ويلعب معهم ، وتبدو هذه الشخصيات الوهمية للطفل نفسه حقيقية تماما ومفعمة بالحيوية ، فمثلا تراها تشارك فى حفل شاى ، تماما كما تفعل العرائس ودمى الدببة الصغيرة . وبعض الأطفال الصغار يبدون وقد استغرقوا تماما فى تخيل أنهم أصبحوا حيوانات ، بل لعلهم على مدى ثلاثة شهور بلا انقطاع « يكونون » قطا أو كلبا ، ويصرون على أن يعاملوا على هذا الأساس ، أو لعلهم يكونون مستر «كذا » « الرجل الذى يلبس النظارة » ، « الجد » أو كمسارى الترام ، ومع أن لعبهم لا يظهر كثيرا من التفاصيل الملائمة فإننا نستطيع أن نرى من صوت الطفل وتعبيراته وإيماءاته أنه هو نفسه ضائع فى مشاعره المتعلقة بتقمص شخصية الشخص الذى يمثله الحق ، أنه يبدو وقد استغرقه تماما هذا التقمص لشخصية الشخص الخيالى ، أكثر من استغراق الطفل الأكبر الذى يمثّل ، والذى يستطيع أن يصنع التفاصيل بطريقة ملفوظة أكثر وضوحا .

وقدرة الطفل فى هذه السن على التفرقة بين ما هو حقيقى وما هو زائف أو متظاهر به ضعيفة إلى حد كبير ، ومن شواهد ذلك ما حدث عندما طلب طفل عمره سنتان وتسعة شهور من صديقته التى

تلعب معه والتى تكبره سنا ، أن « تخاصمه وتزجره » ، فلما استجابت لرغبته فى لطف وتخفف أخذ الأمر بجدية وحساسية وأخذ يبكى ويستخفى منها . لكن القدرة على التفرقة بين الحقيقة والتظاهر لا تتأتى بالقدر الكافى إلا فى أخريات هذه الفترة ، حيث يصبح من الممكن أن تقص على الطفل الحكايات الخيالية العادية ، تلك الحكايات التى هى فى الواقع متعة عظيمة للطفل الأكبر سنا ، وإن كانت ـ بالنسبة للطفل الأصغر ـ حقيقية ومكثفة إلى أبعد الحدود..

إن لعب الأطفال الإيهامى فى السن ما بين الثالثة والخامسة مفعم بالحيوية إلى حد كبير ، كما أنه يعبر عن خلجات الطفل تعبيرا بليغا . وكل ما يوجد فى بيئة الطفل من أشياء سوف يستغل فى هذا اللعب الذى يشغل الحيز الأكبر منه إعادة تمثيل مواقف الحياة بحذافيرها ـ الأب والأم والأطفال ... الغسل والإلباس والطهو وتنظيف الرضّع ... الذهاب إلى رحلة .. والدفاع عن الأسرة ضد مخاطر الحيوانات المتوحشة والمردة والغيلان ، كما يشغله تجسيد مشاعر الطفل نحو نفسه ونحو غيره من الناس . وفى لعب الطفل ، تمثل الحيوانات المتوحشة غضب الطفل وطمعه وخوفه من العقاب تماما كما أن الأم المحبة والأطفال الرضع والأب الحامى الشفيق يمثلون إيمانه بالحب وطيبة الوالدين . وهكذا نجد أن تشكيلة ضخمة من الخبرة ممثّلة الآن.. فبيت الدمية الذى يستطيع عدد من الأطفال أن يلتقوا فيه

مصدر متعة لهم ، واللعب التعاونى الذى يقوم به أطفال مختلفون حيث يؤدون أدوارا مختلفة يبدأ الأطفال فى استخدامه ، وهكذا حين يبلغ الطفل السادسة يكون قد مثل معظم نشاطات الحياة اليومية التى يقوم بها الكبار ، والتى يراها حوله ، ويصبح لدى الطفل هيام شديد بارتداء الأزياء التى تجعله يبدو فى صورة معينة ، وبقضاء فترات طويلة فى نشاط درامى . ومع أنه يصبح مستغرقا بشكل واضح فى هذا اللعب الإيهامى الدرامى فإننا نستطيع ـ على الرغم من ذلك ـ أن نرى أن التفرقة بين ما هو خيالى وما هو حقيقى تزداد رويدا فى عقله وهى أكثر وضوحا وأكثر أمنا . ومهما يكن اندماجه فى دوره قويا فمن الواضح أنه الآن متحقق أنه إيهام وخيال .

رأينا أن اللعب الإيهامى التلقائى للطفل ينطوى على قيمتين أساسيتين بالنسبة له : أولاهما أنه حافز عظيم لنموه العقلى ، فحينما يتظاهر بأنه أب أو أم أو كمسارى أتوبيس أو قائد محراث أو قاطرة ـ فإن لعبه يخلق مواقف واقعية تؤدى به إلى أن يتذكر ويلاحظ ويقارن ويتأمل فى خبرته الحقيقية ، بما يجعله يرجع إلى الوراء إلى الخبرة الحقيقية وينظر إليها ثانية ويفهمها أكثر مما كان من قبل ، ومن ثم يكون قادرا على أن يجعل لعبه الدرامى أكثر حيوية وأقرب صدقا إلى الحياة .. خذ ـ مثلا ـ مجموعة من ستة أطفال يلعبون كأب وأم وأطفال صغار ذاهبين إلى رحلة فى قطار ، وقد رتبوا صفا من

الكراسى لهذه اللعبة ، وبدأوا يمارسون الرحلة فى القطار ، وإذا بأصغر الأطفال ـ وقد نفد صبره بسبب كونه فى نهاية الرحلة ـ يقفز من القطار قائلا : « لقد وصلنا » . فيقول له أكبرهم ـ وهو يمثل دور الأب ـ فى صوت حازم « لا تكن أحمق ... إننا لم نصل بعد » . وهكذا نرى فى هذا المشهد أن رغبة الطفل الأكبر فى صورة درامية طبق الأصل سوف تثير أفكار الصغار منهم وتأملاتهم نحو القيام برحلات حقيقية بالقطار .

ونعود فنقول ثانية إن اللعب الإيهامى ينمى فى الطفل الإحساس بالماضى والمستقبل . إنه يستدعى خبراته السابقة ويتصور ماذا يمكن أن يحدث لكى يحل المشكلة العاجلة . وبصفة عامة ، إنه يمارس فى لعبه الإيهامى ذلك الاختصاص الذى يميز الإنسان ، وأعنى به استحضار الماضى والمستقبل لكى يؤثرا فى الحاضر .

وفوق هذا فإن أول ما يلمح الطفل إمكان فرض الفروض لا يتأتى إلا عن طريق اللعب الإيهامى ، إذ أنه بدون « لو » لن يكون هناك علم ، ولن يكون هناك تعليل . إن الطفل فى سنواته الأولى ذو عقلية حَرفية واقعية تماما ، فإذا سألنا طفلا فى الثانية من عمره « ماذا تقول القطيطة ؟ » . فسوف ينظر حوله متفقدا القطة . ولكنه فيما بعد يستطيع أن يحتفظ فى عقله بصورة قط ، ويتذكر ماذا يفعل القط دون أن يخلط بين الصورة والإدراك . أما القدرة على استخلاص

نتائج عمل افتراضى بدون التعامل معه على أنه حقيقى ـ فلا تتأتى له إلا ببطء فيما بعد. ومع هذا، فإن قدرته على الاحتفاظ بتصور فى عقله، واستخراج متضمناته «إذا كان كذا وكذا، فحينئذ كذا وكذا» هى ـ قطعا ـ خطوة ضرورية لنـموه المنطقى، وهذه القدرة إنما تكشف عن نفسها ـ أول ما تكشف ـ فى لعبه الإيهامى.

إن الطفل الصغير لا تقف حاجته عند فرصة لكى يجلس ويحلم بأحلامه وحيدا، ولكن لكى يعبر عن هذه الأحلام تعبيرا نشيطا فى لعبه الدرامى مع أطفال آخرين، أو مع كبار متعاطفين. وهو ـ من خلال اللعب الدرامى النشيط المشار إليه ـ إنما يجنى قيمة عملياته التخيلية كاملة، بما يكون له أثره فى ثراء حياته العقلية.

وعلى أية حال فنحن نعلم أن اللعب الإيهامى يؤدى للطفل أكثر من هذا بكثير. إنه لا يقتصر على معاونته على حل المشكلات العقلية فى فهم الأشياء وسلوك الناس، وفى تجريب هذا التصور أو ذاك وتطويره إلى نتائجه المنطقية، واختباره فى ضوء الحقائق الواقعية، كما يفعل العالم الصغير ـ وهو فعلا عالم صغير ـ نقول إن اللعب الإيهامى لا يقتصر على ذلك، وإنما يعاون الطفل أيضا على أن يحقق التوازن الداخلى والتوافق من خلال التعبير النشيط عن عالمه الداخلى ... عالم مشاعره وبواعثه، وعن أولئك الأناسى الذين يسكنون عالمه الداخلى. وعندما يلعب الطفل دور الأب والأم وأسرة الأطفال

الصغار ، أو دور المارد ، وقاتل المارد ، أو دور الحيوان المتوحش والصياد ، أو دور المعلم والتلاميذ ، أو دور رجل الشرطة وقائد الأوتوبيس ـ فهو إنما يجسد ما فى داخله من دراما .. (النواحى المختلفة لشخصيته الداخلية) بنفس الطريقة التى يصطنعها الفنان المبدع فى الأدب أو الرسم . إن الطفل الصغير لا يجاهد بواعثه المتصارعة فحسب ، وإنما عليه أيضا أن يتعامل مع أول صورة للكبار أنفسهم ، وكذلك مع أول صورة للأطفال الآخرين : أعنى أول تصوراته عن الأم والأب ... عن الوالدين العظيمين ، أو الشنيعين ، أو المحبيْن ، أو الهاجريْن . وحينما يستطيع أن يعبّر عن هذه التصورات فى لعب نشيط ـ من خلال تعاون سعيد مع الأطفال الآخرين ـ فإن توتره الداخلى تخف حدته ، ويتحقق توازن جديد للصحة العقلية والسعادة . أما الطفل الوحيد ـ أو الطفل الذى يعيش مع أخ واحد أو أخوين ـ أو أخت أو أختين ـ فإن فرصته فى التعبير عن مشاعره فى اللعب الدرامى أقل ، ذلك لأنه يكون فى هذه الحالة شديد الالتصاق بالكبار ، ولا تتاح له فرص كافية للاتصالات المتنوعة التى تمده بالحافز ، وبالراحة والطمأنينة . وفى دور الحضانة ، نجد أن تزايد عدد الأطفال ، واتساع مجال التنوع فى الشخصيات ، وتناقص ضغوط الحياة الخارجية ، تمكن الطفل من أن يدلف ـ وهو أكثر حرية ـ إلى التعبير الفنى ، ومن ثم إلى الصحة العقلية .

إن كثيرا من اهتمامات الطفل فى بيئته الواقعية وحياته الحقيقية لا يمكن أن تُشبع إلا فى المجموعات الكبيرة فى الحضانات ورياض الأطفال ، وحينما يرغب الطفل فى أن ينشئ وينفذ نشاطات مثل المتجر أو المستشفى أو مكتب البريد أو القطار ، فإنه يستطيع أن يقوم بذلك بصورة أفضل إذا كان فى مجموعة أكبر ، وحينما تبدأ فى الظهور اهتماماته الأولى بالقراءة والكتابة والعدد ، مرتبطة بهذه النشاطات الإيهامية فإنه أسهل على الروضة ـ أكثر مما هو على الأم فى البيت المنعزل ـ أن تنتهز هذه الفرصة الذهبية فتقدم له المساعدة التى يحتاج إليها .

القيمة الخاصة للحضانة والروضة

وردت فى خلال حديثنا عن نمو الطفل وحاجاته فيما بين سن الثانية والخامسة إشارات كثيرة عن قيمة الحضانة وروضة الطفل . وكل ما نحتاج إليه الآن هو أن نلخص هذه النقاط ونلقى مزيدا من الضوء على نقطة أو اثنتين .

إن الحضانة أو الروضة ليست فى جوهرها بديلا عن البيت الطيب ، فالآباء والأمهات الواعون المحبون ، والذين يعيشون فى ظروف معقولة يستطيعون ـ ومنهم من يفعل ـ أن يشبعوا أعمق حاجات الطفل . انهم يمنحونه الحب والأمن والتفهم والمشاركة

الوجدانية ، والتواصل البهيج ، واللعب السعيد . وهناك كثير من البيوت التى تعجز عن إشباع بعض هذه الحاجات أو كلها ، وحيث يكون البيت قاصرا فيما يهيئه ، أو يكون فقيرا مدقعا ، أو يكون الوالدان سفيهين ، أو تعيسين ـ فإن على الحضانة أو الروضة أن تعوض الطفل عن هذه النقائص .. أما التساؤل عما إذا كانت الحضانة أو الروضة يمكنها أن تؤدى هذه المهمة بكفاءة عالية فإن الإجابة ماثلة فيما يشاهد فى الأطفال الذين يأتون من الأحياء الفقيرة القذرة ، والمناطق المتخلفة ، أو من أسر محطمة ، حيث يزدهرون حينما يؤخذون إلى الحضانات والرياض . ولكن المهمة الأساسية للحضانة ليست أنها تحل محل البيت ، وإنما هى أنها تكمل لأطفالها الخدمات التى يقدمها البيت ، وأنها توجد حلقة اتصال بين التربية الطبيعية التى لا غنى عنها والتى يهيئها البيت للطفل ، وبين الحياة الاجتماعية فى العالم خارجه . إن الحضانة معبر ممتاز بين البيت والعالم الذى هو أرحب . إنها تشبع بعض حاجات معينة ، إما لأن البيت لا يستطيع أن يشبعها ألبتّة ، وإما لأنه لا يستطيع أن يشبعها إشباعا كاملا . كما أنها تعد الطفل لحياته المستقبلة فى المدرسة بطريقة ليس فى استطاعة غيرها أن تؤديها . وحتى الأطفال الذين يفدون من أسر كبيرة ـ وقليلا ما يوجدون فى أيامنا هذه ـ فإنهم يجدون العون والسند فى رياض الأطفال . ففى الأسر الكبيرة نجد الطفل الذى فى الثانية أو

الثالثة كثيرا ما يحس أنه معزول أو مهمل حينما يولد طفل جديد . أما الحضانة أو الروضة حيث يستطيع أن يتخذ له أصدقاء صغارا وأن تكون له حياته الخاصة ، فإنها تقدم له عونا كبيرا فى مثل هذه الأزمة . والعكس صحيح . فالطفل الوحيد أو الطفل الذى يأتى من أسرة مكونة من اثنين أو ثلاثة ــ يجد الصحبة التى هو فى أمس الحاجة إليها .

وإذا تحدثنا من وجهة النظر التربوية وحدها فلاشك فى أن الأطفال فى الثانية من عمرهم ينمون مزدهرين فى أسرهم على شريطة أن تكون بيوتهم على ما ينبغى أن تكون عليه . إن طفل الثانية لا يزال فى حاجة إلى علاقة وثيقة مع شخص كبير ، ولا يكاد يحتمل مزاحمة عدد كبير من الأطفال الآخرين . وقرب نهاية السنة الثالثة من عمره ــ حتى إذا كان بيته مثاليا ــ يبدأ يحس أنه فى حاجة إلى قدر معين من صحبة أطفال آخرين ، ولاشك أن الحضانة العامرة بمن فيها حيث يستطيع أن يلعب مع بعض الأطفال الذين فى سنه أو أكبر منه قليلا ــ تكون عونا كبيرا على نموه . وأولئك الذين يأتون من بيوت فقيرة قائمة فى شوارع ضيقة ، وأولئك الذين يعانون من نقص فى التغذية أو من طعام أُسىء اختياره ، وأولئك الذين يتشوفون إلى اللعب مع أطفال آخرين وهم وحيدون فى أسرة ــ كل هؤلاء سوف يزدهرون ازدهارا فى حضانة حسنة الإدارة ، حتى لو كانوا فى الثانية

من عمرهم .. ومهما تكن الظروف المنزلية ، فمن الخير أن تهيأ للطفل من سن الثانية إلى الثالثة فصاعدا فسحة من الوقت كل يوم ليلعب مع أطفال آخرين ، وهذه عملية من الميسور جدا أن تُعد لها العدة فى إحدى الحضانات المجهزة تجهيزا طيبا ، والعامرة بالقوى البشرية المؤهلة تأهيلا مناسبا .

* * *

دعنا الآن نلخص فى إيجاز المزايا الكثيرة التى تقدمها دور الحضانة ورياض الأطفال مقارنة بما يقدمه البيت حتى لو كان مثاليا . إن أى مزية من هذه المزايا يمكن أن توجد فى البيوت المتميزة ، ولكن من النادر ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن توجد كلها مجتمعة إلا إذا كان ثمة أسرتان أو ثلاث تعيش فى ظل أحوال مواتية رغدة ، ورأت أن تتحد لكى تهيئ الظروف الخاصة التى يحتاج إليها الأطفال الصغار .. وبهذا تخلق دار حضانة .

المكان الفسيح :

يجب أن توفر للطفل فسحة فى المكان لكى يجرى ويقذف الكرات ... فسحة تتسع لأجهزة اللعب الكبيرة ـ السلالم ، جهاز التوازن ، جهاز التسلق ، صناديق للوثب منها ... فسحة لدحرجة العربات ، ومحاولة ركوب الدراجات ... فسحة فى المكان تسمح

بالصياح دون إقلاق الكبار والجيران ... فسحة فى الداخل يستعاض بها فى الأيام المطيرة . هذا بالإضافة إلى مساحة اللعب الخارجية ، والحديقة .

إن الأطفال الصغار فى حاجة إلى المكان الفسيح الذى يتسع لمجهوداتهم البدنية ، لكيلا يقف بعضهم فى طريق بعض عند النشاط ، ويضايق بعضهم بعضا بالالتحام أو بالصخب والضوضاء . أما حشد الأطفال فى الحضانات الصغيرة الضيقة ، أو فى حجرة الجلوس فى فيلا عادية من فيلات الطبقة المتوسطة ، أو فى كوخ من الأكواخ الفاخرة ، فتلك تجربة مريرة مرهقة بالنسبة لأطفال بين الثالثة والخامسة ، أصحاء أقوياء ، مفعمين بالحيوية والنشاط ، بما يسبب لهم ضيقا شديدا ، وإجهادا عصبيا . الواقع أن فسحة المكان تنطوى بذاتها على تأثير مهدئ مفيد مريح .

مواد اللعب المناسبة :

هناك كثير من مواد اللعب التى تدعو إليها الحاجة من أجل تنمية التوازن والمهارة ... من أجل أول التجارب فى التعبير الفنى والأشغال اليدوية البنائية ... من أجل أول المحاولات فى فهم العدد والعلاقات الفراغية . وكل هذا يكون أيسر تناولا مع المجموعة مما لو كان مع الأسرة الصغيرة ، وفوق هذا ، فإن كثيرا منه يكون استخدامه

مشاركةً أفضل مما لو استخدم فرديا .

إن النمو العقلى للطفل وتوازنه الاجتماعى يعتمدان أكثر ما يعتمدان على توافر المواد المناسبة فى كل طور من أطوار النمو المتعاقبة ، وعلى وسائل التعبير أو الفهم المناسبة فى اللحظة التى يكون فيها مستعدا للإبداع أو للتعلم . إن توفير المواد المناسبة يقتضى معرفة واسعة بنمو الأطفال فى أثناء هذه السنوات ... معرفة لا يملكها إلا قليل من الآباء والأمهات . إن معظم الآباء والأمهات يعتمدون على حانوت اللُّعب التجارى فيما يختارون ، ومن ثم يضيّعون لا أموالهم فحسب ، وإنما يهدرون غايات أطفالهم كذلك . بل إنهم لن يستطيعوا ـ كقاعدة ـ أن يوفروا مجموعة كبيرة متنوعة من المواد البنائية واللُّعب التى تتضمن مثيرا عقليا مناسبا . وهذا يمكن أن يتأتى بسهولة فى المجموعة الكبيرة من الأطفال ، وهو جزء من المعدّات الفنية لمعلمات الحضانة ورياض الأطفال لكى يتفهمن مواد اللعب التى يتطلبها كل طور من أطوار النمو .

المعاونة الماهرة :

كما يحتاج الأطفال إلى مواد اللعب المناسبة ، يحتاجون إلى المعاونة الماهرة فى الجهود التى يبذلونها ليتعلموا وليفهموا ، وفى نضالهم ضد بواعثهم التى تتعارض مع المجتمع . إن معرفتك ما الكلمة الصحيحة

التى تقال للطفل الخجول أو المكبوت ، أو الطفل الغاضب والمخرّب ، واستعدادك بالجواب الصحيح لمسألة عقلية ، وتقديرك متى تستخدم مع الطفل أداة من أدوات العد ، وتفهمك متى تتدخل مع الطفل ومتى تتركه وشأنه ... متى تضبط تحديا أو توقف مشاجرة ... متى تسمح للطفل بأن يحل مشكلته الخاصة ... متى تشجّع ومتى تؤثر السكوت ، كل أولئك ليس ضربا من الحكمة يتأتى ـ ببساطة ـ تلقائيا تسوقه الطبيعة . من المؤكد أنه يستند إلى صفات طبيعية ، ومعلمة الحضانة أو الروضة ـ مثلها كمثل الأم ـ يجب أن يتوافر لديها الحب والتعاطف ، والبصيرة الطبيعية والصبر على التعلم . ولكن الأطفال فى حاجة إلى ما هو أكثر من ذلك فى معركتهم مع المشكلات الكثيرة التى ألمحنا إليها . إنهم فى حاجة إلى التفهم العلمى الصادق كحاجتهم إلى فطنة الأم وحبها . إن معلمة الحضانة أو الروضة كثيرا ما تكون قادرة على تقديم العون حيث تخفق الأم فى تقديمه . ومن ناحية أخرى . فإن معلمة الحضانة أو الروضة الحصيفة سترى المشكلة من وجهة نظر الأم كذلك ، وكثيرا ما تستطيع معاونة الأم تماما كما تعاون الطفل . إنها لم توضع فى هذا المقام لكى تحتل مكان الأم ، ولكن لكى تخدم الاثنين معا ، الطفل وأمه . وفى كثير من الأحوال نجد أن مشاعر الطفل البالغة الصعوبة نحو أمه ونحو إخوته وأخواته تخف حِدَّتها بسبب وجود معلمة الحضانة الودود المعاونة ، وبخاصة

إذا كانت ذات معرفة وبصيرة .

الصحبة :

ذكرنا من قبل ما فيه الكفاية لإبراز الأساليب المختلفة التى يقوم فيها لعب الطفل مع زملائه ـ مع أطفال أكبر منه وأصغر ، فى سبيل أنشطته الإيهامية أو البنائية ـ بتخفيف حدة مشكلاته النفسية ، وتغذية نمو شخصيته . والواقع أن الاتصالات الواسعة مع الكبار ومع الأطفال ـ كليهما ـ يهدئ من ضغط الشعور فى علاقة الطفل بوالديه وبإخوته وأخواته ، ويؤدى إلى التوازن والتوافق فى نموه بجملته .

خـــاتـــمة

وفى الختام ، دعنا نقول مرة ثانية إن الحضانة أو روضة الطفل هى امتداد لوظيفة البيت وليست بديلا عنه . ولكن التجربة قد أثبتت أنها تجلب إلى الطفل من المزايا العظيمة المتنوعة ما يجعلها جديرة بأن ينظر إليها على أنها مؤسسة طبيعية فى الحياة الاجتماعية لأى جماعة متحضرة .

رقم الايداع : ٨٩/٤٦٧٨
الترقيم الدولى : ٨ ـ ٣٨٣ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣